ثلاث مرايا و أنشوطة

مجموعة قصصية

مصطفى عبد المنعم

كل الحقوق محفوظة

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2479/ 2020

الترقيم الدولي: 978-977-6799-05-9

تصميم الغلاف : ضياء إبراهيم.

المراجعة اللغوية: علي فرغلي.

التنسيق الداخلي : علي فرغلي.

المديـــر العـام : إيناس ناصر.

المدير التنفيذي : شادي أبو شهبة.

Logarithpublish@gmail.com

٠١٢٨١٠٥٢٨٢٤

إهداء

إلى أبي، مازال جلبابك الأزرق يحمل
وحده سقف البيت.
إلى هبة، عصاي التي أتوكأ عليها وأهش
بها هواجسي

ليلة

كان المطر كثيفًا، لم يتوقع وهو يمشي في ذلك الجزء المهجور من الجزيرة في ذلك الوقت المتأخر أنه سوف يتعثر في ما يغير حياته للأبد.

الهدوء هنا هو أحب الأشياء إلى نفسه. داعب النسيم الشتوي البارد وجهه فابتسم في سعادة طفل صغير رأى جدته، اخترقت أنفه رائحة أشجار النبق المتراصة على يساره، حاجبةً مجرى النيل الضيق عن مجال رؤيته، وعن يمينه كانت واجهات البيوت القديمة قِدم الجزيرة نفسها تراقبه في صمت لا يقطعه سوى صوت أنفاسها.. أو ربما هو صوت الريح العابرة في شرفاتها عالية الأسقف، وكان الضباب كثيفاً.. كثيفا لدرجة أنه خُيل إليه أنه مع كل خطوة يخطوها يقترب من ملاءة بيضاء امتدت بعرض الطريق، وإلى صدر السماء.

تصاعدت الأبخرة الضبابية مع كل دقة بحذائه فوق الإسفلت المبتل، أشعل لفافة تبغ كعادته اليومية عندما يصل إلى هذه النقطة من الشارع، أطلق سحابة من الدخان الممزوج ببخار الماء من فمه في حين وقعت عيناه على الشجرة، تلك الشجرة العجوز مثيرة الأساطير، لطالما حكت له جدته عنها الكثير. أهل الجزيرة يتباركون بها، تدور النساء الراغبات في الحمل حولها، يقول العجائز أنها تنزف دما أحمر قانيا كالبشر إذا قُطع جزء منها.

" ربما هي شجرة ماصّة للدماء يا جدتي "

صدرت عنه ضحكة قصيرة عندما تذكر طفولته، لم يشبع أبدا من قصة الشجرة و لم تمل جدته أبدا من روايتها، لطالما فكّر في تجربة قطع جزء من الشجرة ليتأكد بنفسه.

" ربما حان الوقت أن أفعلها " قالها بلسان حاله وهو يقترب بخطوات حثيثة نحو الشجرة.

مع اقترابه سمع صوت بكاء مكتوم.. بكاء امرأة. تراجع خطوتين في تردد ثم عدل عن رأيه فربما تكون المرأة في حاجة للمساعدة، دنا من الشجرة مجددا

متجاهلا كل حكايات جدته المرعبة و تحذيراتها الدائمة من الاقتراب منها ليلًا، وهنا رآها...

فتاة في مثل عمره تقريبا متكورة حول نفسها بملابس نوم صيفية مبتلة، شبه عارية، اندفع نحوها وهو يخلع معطفه الجلدي ويردد:

- خيرًا... ماذا حدث؟

استمرت الفتاة المرتعشة في البكاء، ساعدها على النهوض وألبسها معطفه. لف ذراعه حول كتفها فاختبأت في صدره كقطة صغيرة. مرت لحظات كالعمر قبل أن تتكلم أخيرًا..

* خذني إلى منزلي... أرجوك.

- أين هو منزلك؟ أخبريني بمكانه و أنا آخذك إلى هناك فورًا.

*سأدلك على الطريق.

مشيا في الطريق المظلم وهو يلف ذراعه حول كتفها وهي مختبئة في صدره. دار بينهما حوار طويل. حكى لها عن حياته، وروت له عن أسرتها وأصدقائها. أخبرها باسمه وأخبرته باسمها..

كان اسمها " ليلة"

عندما وصلا إلى بيتها كانت قد توقفت تقريبا عن الارتعاش، رفعت رأسها نحوه ليرى عينيها لأول مرة، كانت عيناها زرقاوين كالمحيط، وكان شعرها البني المبتل ملتصقا على جبهتها يزيدها جمالًا. وضعت يدها على صدره ... تماما فوق قلبه ليشعر برجفة من الدفء المفاجيء وقالت بشفتين ورديتين :

* أنا مدينة لك بعمري .

ثم طبعت قبلة دافئة على خده وركضت نحو الدرج . وقف مسمّرا يتابعها بعينيه وهي تصعد الدرج ثم تتوقف وتستدير تجاهه وتقول :

* أنا أسكن في الطابق الثالث ...

عاد من حيث أتى و في الطريق تذكر أخيرا ...

لقد نسى معطفه معها .

****

(من أوراق المفكرة)

يا لها من ليلة يا " ليلة..."

" لقد منحتني الحياة، لم يتوقف قلبي عن الخفقان بقوة منذ لمسته أناملك الدقيقة، عيناي ترفضان النوم، وعقلي سقط مني سهوا على أعتاب بيتك ... تماما حيث طبعتي قبلتك فوق خدي الشائك . لست أدري أهو حب من أول لقاء أم مجرد وهم زائف، لكن ما أعلمه حقا هو أنني سوف أراك ثانية، إن غدا لناظره لقريب يا ليلة ... إن غدا لناظره لقريب . "

****

اتجه إلى منزل ليلة لكنه لم يجده، كاد أن يفقد عقله، لابد أن يتذكر تحديدا أين منزلها ولو كلفه ذلك عمرا بأكمله ...

"أنا مدينة لك بعمري ... "

لم يستمر بحثه طويلا، عندما عاد إلى الشجرة ليعيد ما حدث بالأمس لعله يتذكر ما رآه، كان المنزل تماما في مواجهة الشجرة العجوز ...

" أنا أسكن في الطابق الثالث "

التهمت قدماه الدرج حتى الطابق الثالث، طرق الباب الوحيد ليفتح رجل طاعن السن وقد تحول وجهه بالكامل إلى علامة استفهام ...

شرح له ما حدث الليلة السابقة ليأتيه الرد من العجوز بأن صفق الباب بعنف في وجهه . أعاد الطرق ثانية ليفتح العجوز نافذ الصبر فعاجله قائلا :

- إن لم تكن تصدقني ... فقد نسيت معطفي الجلدي معها ليلة امس، لابد أنه هناك في غرفتها ... فلتتأكد بنفسك ...

اختفى العجوز للحظات ثم عاد ليدعوه للدخول، جلس على مقعد يقابل صورتها على الحائط وهي تبتسم وقد طغى بريق عينيها على بريق القرطين الذهبيين في أذنيها، جلس العجوز إلى جواره صامتا للحظات ثم قال :

"يا بني ... ليس لدي ثمة تفسير لما رويته لي، وليس لدي تفسير لما سوف أقوله لك الآن ... إن ابنتي يا فتى قد توفيت منذ أكثر من ثلاثة عقود ..."

مرت لحظات تأمّل فيها العجوز ملامح عدم الفهم، فعدم التصديق، فالرعب، ثم الحزن على وجهه ثم أردف :

" لتأخذ معطفك وتعود من حيث أتيت ... ولتنسها يا بني ... انسها . "

هواجس حقيقية أكثر مما ينبغي

انتفضت مستيقظة، أنفاسها متسارعة كثور أثخنته الجراح . بلّل العرق المتفصد من جسدها الفراش فخلّف بقعة داكنة اللون على هيئتها في النوم مصلوبة في وضع الرجل الفيتروفي . حاولت النهوض، لكن منعها شعور بدوار خفيف . حاولت التركيز . محتويات الغرفة تتراقص على ضوء الشمعدان المستقر فوق كومود قديم مفكك الأقدام على يسارها . ثبّتت عينيها على الحائط المقابل . كانت القلوب الأرجوانية المنتشرة على كل حوائط الغرفة تدور، تدور .. وتدور في جنون، مصدرةً صوت طنين زاد من حدة شعورها بالدوران . ابتلعت لعابها بصعوبة، كان للعابها طعم معدني صدىء . تصاعد وخز خفيف أسفل ظهرها . سرعان ما تحول إلى طعنات قوية .. شيء ما ينبض داخلها، ارتفع صوت الطنين الناتج عن دوران القلوب الأرجوانية فوق الحائط . انتشر الألم في نصف جسدها الأسفل بسرعة جهنمية، واتخذ من بطنها مركزا للانتشار . اشتدت بها الحمى . ضغطت بكفيها على بطنها محاولة تخفيف حدة الألم .

لحظات مرّت حتى شعرت فجأة بخيط من البلل يتسرب بين فخذيها، سائل أحمر ثخين، قاتم اللون . أول فيض من دماء حيضها الأول . هدأ اكتشافها من روعها . هي ليست محمومة، وإنما ذلك الجسد النابض بالكامل يعلن بقوة أن ثمرته قد طابت .. أخيرًا . ارتخت أعصابها بعض الشيء، أراحت رأسها فوق الوسادة المبللة، باعدت بين ساقيها، مستسلمة لنزوة جسدها الجديدة . أغمضت عينيها لثوان قليلة، ثم فتحتهما على اتساعهما عندما تناهى إلى سمعها صوت حفيف لا تعلم مصدره . تعلّقت عيناها على السقف، حيث أخذت دائرة من السواد في الاتساع . نمت الدائرة، وبرزت منها خيوط متعددة . صار لها أذرع، وأقدام، وعدة رؤوس . شهقت مرتعبة . وكأن شهقتها جذبت الكائن الأسود نحوها مع خلخلة الهواء بين فمها والسقف . اقترب الأسود منها، مطلقًا حفيفه الغريب . لذلك الحفيف رائحة عطنة، تذوقتها عندما جثى فوقها تماما، فامتدت خيوط من الأسود تشبه خيوط العنكبوت إلى حلقها . مدت يدها محاولة دفعه عنها، فاخترقته كفها الصغيرة، كأنما هو دخان، لكنه دخان ذو كتلة كافية لوأد أنفاسها الصغيرة . استقر السواد فوقها، شاغلا كل المساحات الفارغة حولها، وبين ساقيها . شعرت بمدية تخترقها .. مدية من النار، ورغم ذلك أرسلت رجفة باردة أسفل عمودها الفقري . تكرر اختراق المدية منبعها بإيقاع رتيب . ومع التكرار، خفت وطئة الكائن الأسود الجاثم فوق صدرها . بهت سواده،

وصار رماديا، ثم ضبابيا . حتى تلاشى تماما، مخلّفاً ألم ممض أسفل بطنها، تماما تحت الجلد .

حاولت السيطرة على مشاعرها المتضاربة . خليط من عدم الفهم، والرعب .. والألم . لم تستطع فانفجرت باكية . لكن بكاؤها كان صامتًا . فقط كان جسدها يرتج بكامله . سال من عينيها نهران من الدموع الحارة، ينبعان من مقلتيها، ويشقان طريقهما بين ثنايا جلد وجهها، مخلفين حرقة ملهبة، حتى يختلطان في النهاية بمستنقعات العرق فوق ملاءة الفراش .

عاودتها الحمى من جديد .. الطنين أشد حدة هذه المرة، والقلوب الأرجوانية تدور، وتصطدم ببعضها في رقصة مجنونة . وذلك الوخز القاتل أسفل ظهرها، والنبض في أحشاءها . وضعت يدها على بطنها التي تقبّبت بانتفاخ صغير، أخذ في النمو بسرعة . النبض داخلها صار أقوى . انقلبت سرتها لتخرج من مكانها متورمة . تحسّست بطنها بفزع عندما تحرك شيء ما داخلها . تحسّست موضع الحركة، فلم تجد شيئا . باغتتها الحركة في مكان آخر، ثم مكان ثالث، ورابع . تسارعت وتيرة حركة الكائن النابض داخلها . متزامنة مع آلام قوية تزحف نحو فرجها . استبد بها الألم فصرخت . خرجت صرختها قوية هذه المرة . صرخة تحطم على

إثرها زجاج النافذة المجاورة، ناثرا شظايا جرحتها في أماكن متعددة من جسدها . انفجر الماء اللزج بين فخذيها . تسارعت دقات قلبها، تلاحقت أنفاسها المتوترة . مرّت لحظات حتى لاحت أولى أجزاء الكائن النابض، خارجة منها . كتلة من السواد . تزحف، وتتمدد . صار لها أذرع، وأرجل، وعدة رؤوس . أخذت في النمو، حتى كادت الرؤوس المتعددة تصطدم بالسقف المرصع بالنجوم للغرفة . مال الكائن نحوها، بدأت ملامحه في الارتسام . لون باهت في خضم سواد فاحم، اقترب الكائن أكثر .. فأكثر . بلغ بها الفزع مبلغه، فصرخت . اندفعت بكل ما لديها من قوة، لتهب جالسة في الفراش المبلل . التفتت حولها .. لاشيء. فقط أنفاسها متسارعة كثور أثخنته الجراح . تتفصد عرقا . وبين فخذيها يجري فيض من دماء حيضها الأول .

سارة

نظرت إلى ساعتي . قاربت الثالثة بعد منتصف الليل . الضباب يغطي كل شيء بالخارج . والسماء تمطر بشدة . أعلم جيدا أن المطر لن يتوقف قبل الصباح، وذلك الأمر لن يمنعني عن رحلتي اليومية . ارتديت ملابسي على عجل : قميصا شتويا أسود اللون، و معطف جلدي اسود، و وشاحا من الصوف الملون . وبنطالين من الصوف إمعانا في الحصول على الدفء، وحذاء ضخما يمنع المياه المتراكمة على الإسفلت من الوصول لقدميّ . هبطت الدرج في هدوء وسرعة . وقفت لحظات لألتقط أنفاسي . ثم عدوت بقوة تحت المطر . تفصلني دقيقتان ونصف الدقيقة عن موعدي الليلي معها . لم أتأخر ولو مرة خلال خمسة أعوام . وأخيرا ها أنا ذا أقف تحت شرفتها .

****

تراقص البندول، ودقت ساعة الحائط معلنة تمام الثالثة صباحا . ضحكت الفتيات بقوة . وصاحت واحدة منهن :

"سارة ! لقد حان موعد فتاك العاشق . "

قبل أيام باحت لهم سارة بسر سهرها اليومي ..

"هنالك شخص ما يعشقني . يقف يوميا تحت شرفتي في تمام الثالثة صباحا ولم يتأخر ولو مرة واحدة منذ خمسة أعوام . "

لم تفلح محاولاتها في صد فضول صديقاتها . استسلمت أخيرا لطلبهن اللحوح ...

"هيا ... لا تتركيه ينتظر أكثر من ذلك . "

أخرجها الصوت من شرودها . نهضت في هدوء مصطنع، و ارتسمت على ثغرها ابتسامة صغيرة . سارت على مهل . خطوات قليلة... ثم الشرفة .

وقفت للحظات قليلة، ثم نظرت إلى أسفل . كان واقفا وعيناه مثبتتان عليها .

عيناه اللامعتان . عيناه اللتان تمنت أن تنظر خلالهما ولو مرة واحدة عن قرب . لطالما تمنت أن

تتبادل أطراف الحديث معه . أن تتمكن ولو مرة واحدة أن تطرح ذلك السؤال الدائر في رأسها بلا توقف : " لم تفعل ذلك ؟ ... لم لا تختفي وحسب ؟ "

كعادته اليومية قال لها :

" هذه الحياة كالدائرة . وفي نقطة ما من الدائرة، أركض إلى حيث ألقى حتفي . في نقطة ما من الدائرة، تركضين أنت إلى حيث الحياة . ولا يسعني إلا أن أترقب تلك اللحظة التي تمنّ عليّ الحياة فيها بنقطة تتقاطع فيها سبلنا، فألقاك للمرة الأخيرة، وتكملين أنت حياتك في هدوء . "

قال ذلك قبل أن يستند بكامل جسده على عمود الإضاءة المبلل، ويطعن السكون صوت ماس كهربائي، و صرخات هي مزيج بين التوسل و اللوعة .. ثم صوت ارتطام جسد أحدهم بالإسفلت المبلل ... تماما كما يحدث يوميا منذ خمسة أعوام .

الآثار الجانبية لحكايات الشاطر أبو الشامات

كلما أمطرت السماء، أتذكر . أحكم إغلاق معطفي . أنكمش في نفسي، راجيا دفقة من الدفء . أتفحص الأرجاء بسرعة . وأتخذ أول بقعة تقع عليها عيني، وتصلح مأوى يعصمني من المطر . أشعل لفافة تبغ في عجالة . أمتصها بتلهف لا أستغربه الآن . أعب الهواء ملء رئتي، وأنفثه بدفعات راقصة، فيحتال الدخان أشكالا، وصورا . تجاذبني أطراف حديث صامت، لا يخالطه إلا نقر زخات المطر المتواصل . أعاود امتصاص لفافة التبغ، لكني أغمض عيني هذه المرة . وأحاول الإصغاء لما لدى الأمطار مما تقصه علي من القصص . يلاطف الهواء البارد وجهي، وتدغدغ قطرات الماء اللعوب أرنبة أنفي . تغمرني غبطة أحبها، وتتسلل إلى دواخلي ريح زاكية ... ريح جدتي .

أذكر كل تفاصيل طفولتي بوضوح غريب . ويكأني بت بالأمس ذلك الطفل الذي لا يكف عن مداعبة أذنه لينام، وجاوزت الثلاثين بين الليل والضحى .

بالأمس كنت ابن تسعة أعوام، أسابق الزمن، وأسابق أقراني في لعبتنا المفضلة (لمز الحمام) كما نطلق عليها . أجذب صيوان أذني طوال الوقت، حتى أثناء نومي . أشيع الفوضى في كل مكان، ولا أكف عن الحركة .

أذكر أنني بالأمس كنت أركض .. أركض بسرعة جنونية . اصطدمت بوالدتي التي صرخت بوجهي موبخة إياي . لكنني لم ألتفت إليها . استأنفت الركض حتى وصلت إلى مجلس جدتي . هلّلت بلا مقدمات " ستي.. ستي". فأجفلت جدتي، لكنها سرعان ما استعادت صفو ملامحها . لتستقبلني بذراعان ممدودتان، وابتسامة رائقة . ارتميت بين ذراعيها، فعانقتني وحملتني لأستقر في حجرها . تواصل أمي الصراخ " بطل لعب في ودانك "، فأدفن رأسي في صدر جدتي مختبئا .. تحدّجني أمي بنظرات متوعدة، فتدافع جدتي بشراسة " سيبي الولا .. امشي ". لتنتهي المعركة الجديدة بانتصاري كالعادة .. وكعادتي حينها أحتفل بالنصر بجذب صيواني أذني في آن واحد نكاية في أمي، فتستشيط غضبا . وتضحك جدتي . تضمني إليها أكثر، وتهمس بجملتها المعتادة " يا ولا ... ودانك حتبقى قد ودان الحمار ".

تبرق السماء، فأتنبه . أشعل لفافة أخرى من التبغ، أعاين طرفها المحترق لثوان معدودة قبل أن أعود لرحلتي .

أتذكر .. كانت جدتي في مواجهة المرآة، تحلّ جدائلها وتضفّرها مرة أخرى .. وتغني " وديني لامي ... وأديلك بوسة من فمي ... و أوهبلك حالي وأموالي .. حلفتك وديني لخالي . يابتاع النعناع يا واد انت ".

أتصنت عليها وهي تغني بدلال بلكنة (فلاحي) .. صوتها هادئ، ولكنتها تضحكني . تناديني فأهرول نحوها . تجلسني فوق فخذها . اتأملها . ظهرها متقوس . جدائلها بيضاء . وجهها كلوحة فسيفساء . في عينها زرقة متوارية خلف غمامة من الدموع . أنفها مستدق كحد الحربة . لم يتبق في فمها سوى أربعة قواطع، تلوك بهم طعامها بصعوبة .. أستغرق في التأمل فتمتد كفي الصغيرة تتحسس وجهها، فتقبل كفي، وتبتسم " أحكيلك حدوتة ؟ "

تروي لي جدتي مغامرات الشاطر أبو الشامات . يأخذني صوتها إلى عالم أحبه . عالم يمكن للبطل فيه أن يكون شابا ضئيل الحجم، أو حتى طفلا ضعيفا غير مكتمل البنيان . أجوب أروقة القصور الخرافية . أترجل

في بلاط الملوك الغابرة بكل حرية . أصادق أشجار الرمان المتكلمة . أمشي فوق الماء . أهزم ملوك الجن . أعتلي ظهر طائر الرخ، وأحارب جيوش الأقزام الشرسة . وأقبل الحسناء في كل مرة . فتبلغ سعادتي مبلغ الطيران . تنسحب الأرض من تحتي، فأتقافز في الهواء، وأصطدم تقريبا بكل شيء، لتصل الفوضى حد ثورة أمي . فتقذفني بما تطاله كفها وهي تصرخ، وتلعن الأولاد، والزواج، والحياة بكل تفاصيلها، قبل أن يتحول الصراخ إلى ابتسامة يائسة.. ثم ضحكات محبة عندما تجدني أتقي ما تقذفه أحيانا، أو أواجهه بشجاعة - كما يفعل الشاطر أبو الشامات - في أحيان أخرى .

تجتمع العائلة كل يوم خميس . يتحلّق الجميع حول جدتي . لا ينهكها تكرار الحكي . ولا يجرؤ الملل على مصاحبة تكراراتها الأسبوعية، فأرى الكل فاغري الأفواه . تلتمع عيونهم ببريق استمتاع واضح . تتباين اختلاجاتهم في تحرق مشوق إلى التفصيلة القادمة في قصتها . يتبارون في تذكيرها بما يمكن أن ترويه .. تقول أمي :

" إحكيلنا حكاية مقام أبو الدردار يا ماما "

فأردد بلهفة :

" لأ... إحكي إزاي جدي كان بيبوسك يا ستي. "

تضحك جدتي بدلال . أقسم أنها كانت تعود شابة بنت عشرين عام عندما تضحك . ينشد تغضّن جفونها . وتنقشع سحابات الدموع عن عينيها فتتضح زرقتهما كالبدر في الليالي الصيفية . تحكي جدتي لساعات متواصلة كيف تزوجت جدي، معجزة المقام، بئر الأرواح، حارس المقابر، حتى تصل في النهاية إلى حكايات العفاريت التي تشاركنا سكنى البيت، فترتعد فرائص الجميع من فرط الرعب، فتتركهم جدتي، متجهة إلى غرفتها لتستريح . وينفض السامر . كانت في بعض الأحيان تشير إلي بغمزة من عينها قبيل قيامها، فأتبعها . أجلب لها في طريقي إلى غرفتها أحد أغطية الأواني . تضع الغطاء فوق رأسها، وتربط فوقه حجابها الأسود . تعقده عند رقبتها فتبدو كالشبح . كانت هيئتها تلك ترعبني في كل مرة، فأركض هاربا . أنزوي في أحد الأركان أراقبها وهي تخرج من الغرفة، تزوم كالغيلان تارة، وتضحك كالساحرات تارة أخرى، فيصرخ كل من بالخارج رعبا . وتعم الفوضى، فأضحك ... وتضحك جدتي .

ذات خميس أيقظني صراخ وبكاء . انتفضت من رقدتي، وهرعت إلى مصدر الصوت .. إلى غرفة جدتي

. قفزت قفزتان كانتا كفيلتين بإيصالي إلى الغرفة . علمت أني خدعة جدتي الأسبوعية فاتتني . الصراخ، والبكاء .. ذات الفوضى المعتادة . نظرت إلى جدتي . عاقدة أحد أحجبتها البيضاء عند رقبتها كالعادة . لكنها لم تستخدم غطاء الإناء هذه المرة . طفقت أضحك ساخرا منهم كعادتي، لكن جدتي لم تكن تزوم كالعادة ... لم تكن تضحك كالعادة .

ثلاث مرايا و أنشوطة

" كن حذرًا حيال ما تتمنى . "

لم يلتزم بهذه الحكمة ولو مرة . كان يتخيل دوما كيف سيكون شعوره لو حدث الأسوأ، وكان القدر يفاجأه دائما بما يفوق كل تخيلاته .

قبل أيام كان ممددا فوق سريره الصغير الذي توسط غرفته خافتة الإضاءة، غارقا في أفكاره عندما قطع رحلته إلى الماضي دقات صغيرة على باب الغرفة، ردّد في ملل إذن الدخول للطارق الذي بدا له أنه لم يسمعه جيدا، كرّر إذنه بالدخول ولكن لم يتحرك ساكنا، وإنما توالت الدقات على الباب الخشبي .

قام من مرقده وفتح باب الغرفة ليجد ابنة أخيه الصغيرة تدق بيديها الباب في نفاذ صبر واضح، تفرّس ملامحها الصغيرة وعلى وجهه ابتسامة تعكس جمالها، بادرته الصغيرة بسؤال سريع :

"ماذا تريد أن يُحضِر لك بابا نويل هذا العام ؟"

كان السؤال مباغتا . شرد للحظات ثم شار لها ن تتبعه للداخل، جلس على أقرب مقعد وأجلسها أمامه، طالع عينيها اللامعتين المتسائلتين ثم أخذ نفسا عميقا أتبعه بصمت للحظات، ثم أجابها ...

كان يتمنى لو ان (العم نويل) يقدر على أن يهبه ثلاث مرايا، واحدة يرى فيها الماضي ليتذكر دوما ماذا كان، والثانية يرى فيها حاضره لعله يرى نفسه كما هو حقا بلا نفاق، والأخيرة للمستقبل، حتى يصبر على شر حاضره آملا في حسنات الغد .

ارتسمت ملامح عدم الفهم على وجه الصغيرة قبل ان تنسحب في خيبة امل .

****

تفقدت عيناه أركان غرفته، لا شيء غريب سوى ثلاث مرايا مغطاة بقطع من القماش السميك، ونار مشتعلة أسفله، وفي مقابلته كان يقف هذا العجوز مرتديا زي العم (نويل) الذي بادله نظرات جادة ... وحازمة .

من المفترض أن يكون هذا العجوز مجرد أسطورة للأطفال، لكنه يقف في مواجهته وقد حقق له أمنيته ... ثلاث مرايا .

لكن الأمر ليس بهذه السهولة، عليه أن يثبت أنه يستحق الهدية، أملى عليه العجوز ذو الزي الأحمر شرطه الوحيد :

عليه أن يختار مرآة واحدة ليرفع عنها الغطاء ...

صمت طويلا، لا يقطع صمته إلا دقات البندول - الذي احضره معه العجوز – المستفزة، تقدّم بخطوات مترددة تجاه المرآة الأولى، وامتدت يده المرتعشه نحو الغطاء المشتعل .

الماضي :

" ماض يطارد والصعلوك ينتظر ... وهل يعود من بالأمس قد رحلوا ؟ "

فكّر مليا، تذكر سنين خلت، ووجوه رحلت، في مثل يومه هذا كان برفقة أميرة من أميرات الأساطير،

يحلم وإياها ببيت هو أقرب لقصر لمجرد كونها جزءا منه .

والآن ؟ ماذا عن الآن ؟

رحلت عنه الأميرة إلى غير رجعة، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت . ليس في ماضيه ما يستحق المشاهدة، تراجعت أصابعه بسرعة تعجب لها، وامتد بصره نحو مرآته التالية ...

الحاضر :

" في الحقيقة ... ليس هنالك ما هو أقسى من الحقيقة"

احتدم الصراع داخله، كاد رأسه ينفجر، تردّد سؤال ملح في أرجاء رأسه ... هل هو مستعد حقا ليرى نفسه على حقيقتها ؟

آتاه صوت من أعماقه قائلا :

" أنت بلا ريب وحدك مهما حاولت أن تقنع نفسك بخلاف ذلك، أنت لاتمتلك الجرأة لترى ما يتحتم عليك أن تراه، أن تدرك أخيرا أن كل ما ظننته كان محض كذب، أنت لست مستعدا للحقيقة ... لست مستعدا .

" تراجعت أصابعه الممتدة نحو الغطاء ليضع كفيه فوق أذنيه محاولا أن يوقف ذلك الصوت الآتى من المجهول، ولم يبق إلا خيار أخير ..

المستقبل :

" يتغير المستقبل إذا وقعت عليه الأبصار يا بني ... لا تنطل عليك الخدعة "

تذكر كلمات ابيه ...

"لا يرى المرء المستقبل إلا حين يعيشه، في حقيقة الأمر لا وجود للمستقبل، خاصة عندما يجهل المرء كيف كان، وما هو حقا الآن . "

****

وقف في حيرة من أمره، في حين رمقه العجوز نويل بنظرة توشي بأن لديه ما يقوله . فما كان منه إلا أن بادله بنظرة متوسلة، علت ابتسامة منتصرة وجه العجوز قبل أن يلقي برداءه الاحمر أرضا ليظهر رداء أسود يرتديه تحته، حدّجه بنظرة متأملة للحظات قبل أن تمتد يده داخل حقيبته الكبيرة، وتعود بحبل معقود على هيئة مشنقة .

حسنا !

يبدو أنه لا خيار لديه، تناول المشنقة من يد العجوز وجعل يعالجها في سقف غرفته، عليه أن يضع حدا لحياته عديمة الجدوى ... عليه أن يفعل ذلك الآن .

ارتعش جسده بقوة، ورغم ذلك لف الحبل حول عنقه في تصميم، تقدّم خطوات صغيرة نحو حافة المنضدة التى وقف فوقها ثم أغمض عينيه في استسلام .

هم أن يدفع قدماه نحو الفراغ لتقوم المشنقة بعملها، وإذا بعقله الباطن يناديه مستجديا :

" تستطيع أن تختار، ليس الموت هو الخيار الوحيد " .

استجاب أخيرا لصوت عقله الباطن بعد صراع طويل مع اليأس، رفع حبل المشنقة عن عنقه، قفز مادا يدا ثابتة نحو المرايا، تشبثت أصابعه ببقايا القماش المحترق لتأكل النار جلد كفه، و صدر عنه صرخة ألم قوية قبل أن يسقط الغطاء بالكامل من فوق المرآة التى اختارها ... مرآة الحاضر .

الحاضر :

طالع انعكاسه في المرآة، بادره ظله بابتسامة مشجعة، علم أخيرا في قرارة نفسه أنع لن يصدقه القول إلا هو، قال الظل بعد صمت طويل :

" أنت مستعد أن ترى الحقيقة الآن يا ... أنا "

بعض اللقاءات مترع بالأسئلة

اتجه بخطوات مترنحة نحو عربة المترو ونظر حوله بعين تنظر و لا تبصر . دلف متكاسلا باحثا عن مساحة كافية ليريح ظهره إلى أحد أبواب العربة الأربعة . كانت سماعات الأذن خاصته تقوم بدورها في منع الترهات الخارجية من الوصول الى قنوات عقله على أكمل وجه . تردد صوت المغني بجنبات رأسه : " يا ترا فاكر .. وللا ناسي ؟ " علت وجهه ابتسامة باهتة عندما واتته بغتة فكرة لقصة قصيرة، و أخذ يفكر في أبطالها و أحداثها حتى تلاشت الموجودات من حوله وبدا له أن وعيه قد بدأ في الانسحاب إلى حيث تدور أحداث قصته الصغيرة التي لم تولد بعد، قلت له : " ماذا حدث بعد ذلك ؟ " أخذ نفسا عميقا ثم زفره في تردد ثم أردف : كان دائما ما يقدم له النصح بأن افعل هذا ولا تفعل ذاك ... و كان دائما يصدمه الرد العاصف أن لا شأن لك باختياري أو حياتي، ففرق السن لا يسمح لك بأن تدّعي الفهم وكونك أبي لا يعطيك الحق أن تملي علي ما افعل و ما لا افعل .. لم يكن يدرك كم كان أحمقا آن ذاك لكنه أدرك الآن بعدما تأخر الوقت ... تأخر كثيرا .

نظرت له مستفهما فأكمل متجاهلا نظراتي البلهاء : "انسحب عقله تماما إلى عالم آخر ابتدعه خياله ليكون مسرحا تدور عليه أحداث قصته الصغيرة، لولا يد امتدت لتربت على كتفه فاستردته من شروده الاختياري " .. لابد أن أحدهم يريد النزول من عرأة المترو و أنا أقف عائقا في طريقه. " هكذا قال لنفسه ..تنحي جانبا ليفسح مجالا للعبور لكن أحدا لم يتحرك، بل استمر النقر المتواصل على كتفه في إصرار مستفز مما دفعه للنظر خلفه بنفاذ صبر ليجده أمامه وكأن شيئا لم يكن ... هو يعلم جيدا أن أبيه مات منذ سبع سنوات أو أكثر قليلا، كيف يعود من ماتوا بهذه السهولة ؟ كان عقله يعمل بسرعة في تلك اللحظة، همّ أن يقول شيئا فأسكته الآخر بإشارة من يده أعقبها بابتسامة مطمئنة قبل أن يتأبط ذراعه اليسرى معلنا أن وقت النزول قد حان . كان الشك ينازعه فينظر ناحية أبيه فيطمأنه الأخير بابتسامته الهادئة . انتصبت كل شعرة بجسده معلنة عدم الإرتياح، كانا قد وصلا الى منتصف الدرج المؤدي إلى ماكينات الخروج الإلكترونية فانتزع ذراعه من يد ذلك الشيء الذي يبدو كهيئة أبيه وهرع يلتهم الدرجات صاعدا إلى قمته ثم استدار وهو يرتعش لينظر حيث تركه فلم يجد احد

.لم أتمالك أعصابي فصرخت في رعب : تبا ! ماذا يعني ذلك تحديدا ؟ تجاهلني للمرة الثانية ثم أردف

:نزل الدرج في قفزتين أو ربما ثلاث و ركض متفحصا كل الوجوه ولكن ذاب ذلك الشيء بلا أثر . بحث عن أقرب مقعد ثم أخرج مفكرته ومرّ بعينيه فوق السطور القليلة التي خطتها يده : عندما مات ابي أمسكت القلم وسطرت برصاصه الباهت مثلي كلمات بلا معنى واضح تماما كموته . طفقت أكتب بخط مضطرب كشعوري ومنذ تلك اللحظة لم يفارقني قلمي -الرصاص - ولم يفارقني اضطرابي ولم تفلح كل محاولاتي البائسة فى أن تحييني أو تعالج شحوب ملامحي و نفسي .

بعد الفراق تبقى الذكريات . والكثير من الأسئلة "خُيل إلي يوما أنني اجتمعت والشيطان وتعاهدنا على أن أسأل وهو يجيب، و أكتب أنا نقلا عنه ظنا مني أنها صفقة رابحة لكنه أجابني بمزيد من الأسئلة، فمزيد من الشحوب ومزيد من الاضطراب

- لما ؟

- ولما لا ؟

- من أجلي.

- أتستحق ذلك؟

- بل بحاجة له

- و لماذا لا تكون وحدك ؟

- كذا هي الحياة

- و ما الحياة ؟

- أن تقتسم السعادة فتزداد

- أهذا فقط ؟

- و أن تقتسم الحزن فيذوب أثره

- ماذا لو قلت لك أنك مخطىء ؟

- لست أدري.

- بل تعلم ... ما الحياة ؟

- هي ضد الموت إذا

- و ما الموت ؟

علمت وقتها أنني خُدعت فهُزمت، و عندما تعالت ضحكات الشيطان الفاجرة في أذني تيقنت أن ما خسرته للتو هو الحرب برمتها لا مجرد جولة . عندما مات أبي مسّني الشيطان فصبغني بألوان الجحيم، فلم يهدأ طوفان الأسئلة منذ ذلك الوقت، و يبقى السؤال الأخير : متى سيتوقف كل شيء ؟ "

اللعنة ! ليس هذا ما كان يُكتب .

كوب ماء مثلج

قبل أن أروي أي شئ . دعني أخبرك أمرًا .

يفضّل أن تتجاهل رنين هاتفك المنزلي مهما بلغ إلحاح المتصل، فغالبا ما يكون الخبر غير سار بالمرة .

كان يوم مرهق مثل أي يوم يمر على طالب في فترة امتحانات نصف العام الأول عندما رن الهاتف في إلحاح . لم أكن وقتها ناضجا بما يكفي لأتعلم الدرس من أبي .

"لا تجب على اتصال ملح أبدا ... خاصة عندما لا تكون منتظرا اتصال ما"

وضعت سماعة الهاتف على أذني ليأتيني الصوت من الجهة الأخرى ...

"لقد وجدت روح أبيك طريقها إلى الملكوت . "

وضعت السماعة متجهما . تلاحقت الأحداث سريعا قبل أن أجد نفسي واقفًا أمام قبر مفتوح وعشرات الأيادي تربت على كتفي في أسى واضح .

شرع إخوتي برفقة حارس المقابر في وضع جثمان أبي في مثواه الأخير . لحظات لزجة مرت حتى تم إغلاق القبر تمامًا . ارتفع صوت عدد من المرتزقين بالدعاء على المقابر ثم انقطع فجأة . وقف الجميع فاغري الأفواه، ناظرين إليّ في تعجب وأنا أضحك بهيستيريا دمعت لها عيناي .

استمر ضحكي الهيستيري حتى سقطت في نوم عميق لفرط الإرهاق، وامتد لسبعة أشهر تالية، أدركت بعدها فجأة أن أبي لم يعد يتجول في شقتنا الصغيرة كعادته، أو يطلب كوب الماء المثلج برغم اعتراض أمي بعد منتصف الليل . حينها فقط بكيت، ولم أتوقف عن البكاء لفترة طويلة . لم أكن أعلم ما علي فعله فأمسكت القلم وحاولت الكتابة . اعتصرت عقلي . قلبت وجهي في سماء الغرفة . ضربت الحوائط برأسي، وكفي . ثم كتبت جملة واحدة جادت بها قريحتي .

" لقد مات أبي "ومنذ تلك اللحظة لم أكف عن الكتابة .

في الصباح، أعلنتها صراحة إلى أمي .. " أنا لست راضيًا عن الرب يا أمي "ثم رحلت متحاشيا نظراتها المتحسرة .

كانت لدي أسبابي . لقد أخذ الرب مني أبي عنوة ولم يسألني إن كنت أحتاجه أم لا . من فضلك لا تردد أي من الشعارات المحفوظة عن العمر، أو النصيب، أو انتهاء رسالة الأب . أنا الإبن وأنا فقط من يحدد إن كانت رسالة الأب قد وصلت للمرحلة التي تنتهي عندها أم لا .لكم كنت أحتاج أن يصدر الرب أمره أن يا نار كوني بردًا وسلامًا على قلب ذلك النحيل . ولكن هل يراني الرب حقا ؟ هلي يطرق صوتي أبواب السماء، فيقول نفر من الملائكة يا رب انظر لذلك العبد ؟

نصحتني أمي بالدعاء إيمانًا منها بأن الله يحب العبد اللحوح، وأن الدعاء كله خير سواء تقبّل أو لم يتقبّل . ولكن لم يكن الأمر بهذه السهولة بالنسبة إليّ . ليس الإيمان كالقول . لذا صارت همهماتي بالدعاء أضعف بكثير من احتمالية أن ينظر إليّ الرب في عليائه بعين القبول . ومع اختلاف الليل والنهار، و عجز همهماتي عن تجاوز حلقي، عرفت عيناي سبيلا آخر للملكوت .

مرت أيام منذ بدأت غضبي الصامت على السماء . وإذا بي ذات ليلة أسمع صوت أبي المميز طالبا كوبا من الماء المثلج . انتظرت أن أسمع اعتراض أمي، ولكن النداء تكرّر . هرولت في عدم تصديق إلى مصدر الصوت فرأيته مستلقيا على سريره، مرتديا جلبابه الأزرق اللامع . قال لي فور دخولي الغرفة : " احضر لي كوب الماء المثلج ولا تلق بالا لاعتراضات أمك . "

نفّذت الأمر في صمت، ومنذ تلك الليلة لم يتوقف أبي عن النداء، ولم أكف أنا عن تلبية طلبه .

رؤى صلصالية

لم يكن الجو شديد البرودة كما اعتقدت . في الحقيقة لم يكن هنالك ما يمكن للمرء أن يطلق عليه لفظة برودة .في عتمة الليل أجري . لا لوجهة محددة، لكنني كنت أختار شوارع وحارات بعينها، و لا موعد محدد، فقط أجري بسرعة كبيرة، رغم ذلك لم تكن المباني أو الأشجار على جانبي الطريق تتحرك عكس اتجاهي بسرعة توحي بمدى السرعة التي اعتقدت أنني أجري بها . فقط لهاثي، وصفارة الهواء المنبعثة من صدري كانا أوضح الأدلة على تلك السرعة . لم يكن الجو شديد البرودة كما اعتقدت . في الحقيقة، كان خلاف ذلك تماما . أعضائي تحترق داخل جسدي . ذلك حتما يفسر غليان دمي وسوائل جسدي الأخرى . العرق المتكثف فوق جلدي دليل آخر على غلياني الداخلي . خلعت أيا كنت ما أرتديه لأكمل رحلتي إلى (اللا أعلم أين) عاريا تماما، حافي القدمين . شعرت أن جسدي صار أكثر مرونة وانصياعا، لكنني لم أجد الثواني الكافية لأطلق زفرة الارتياح المرتقبة، قبل أن يدوي انفجار قوي أطاح بي لأصطدم بإحدي البوابات الحديدية لأحد البيوت العتيقة على جانبي الطريق، وأسقط أرضا . وتكتظ

الشوارع بأناس بدوا لي - ربما لفرط الذهول - كمنحوتات غير مكتملة من الصلصال لأقزام . ضحكت الحشود القادمة من كل الاتجاهات . يشيرون إلى عريي في سخرية لم يتجشم أحدهم عناء مداراتها، في حين امتدت أياد أخرى تضربني، وتصفعني على ذكري، ومؤخرتي . في عتمة الليل أجري، لا لوجهة محددة، المهم أن تكون بلا أقزام صلصالية ضاحكة، ومتحرشة، و لا موعد محدد، فقط أجري بسرعة كافية للهرب . بالتأكيد لم أتوقف . بالتأكيد أيضا لم أسترق النظر للخلف، لكنني سقطت مجددا لأواجه - مرغما - الأقزام الصلصالية التي لم تكف عن الضحك باستمتاع، بالسخرية المستفزة، في حين طفقوا يتسلق أحدهم الآخر، لأجد نفسي في النهاية وجها لوجه مع تمثال صلصالي ضخم، ومكتمل تماما لشخص ما . شهقت مرتعبا، وزحفت متقهقرا للخلف، فقلّدني رجل الصلصال، شهيقا وتقهقرا، قبل أن ينفجر ضاحكا بصوت رفيع جدا، كصوت طفل، أو امرأة . فتحت فمي لأتكلم لكنني لم أستطع ففعل مثلما فعلت، لكنني لم أرَ لسانا داخل فمه وكأنما سمع ما يدور برأسي، رفع يده لأرى لسانه الصلصالي يتلوى بين إصبعيه . هل ما يحدث هو فعلا ما أظن أنه يحدث ؟ لم تنتظر عيناي الإجابة، فبكيت، ليفعل الصلصالي مثلي . يبكي بحرقة ملتاعة . أطاح بلسانه بعيدا . لطم وجهه، ورأسه. سالت خيوط من الدموع والمخاط الصلصالي من عينيه وأنفه . توقف عن

الضحك المستفز أخيرا، ليستبدله بصراخ متواصل، قبل أن يستفرغ جوفه في وجهي، وتبدأ أطرافه في الانصهار بسرعة، مخلّفة بركة من الصلصال أحاطتني، وشلّت حركتي تماما .انصهر العملاق، لكن رأسه التي لم تتوقف عن البكاء والعويل لم تنصهر . سقطت الرأس على صدري . مددت كفي بعد عناء أتفحصها . تلاقت عيوننا للحظات ... هاهاها .. لماذا لم أتفاجأ بأن ذلك اللعين يشبهني تماما ؟

الرؤية من نظارات شمس رمادية

" إن خوف الرجل من النور خطيئة لا تُغتفر "

كيف يمكن للمرء أن يتبين الوقت إذا تشابهت الليالي والأيام ؟ مرت شهور، ربما سنوات، هو لا يعلم حقا . ليس من السهل أن تميز بين الليل والنهار إذا غطّى اللون الرمادي كل شئ . الجدران رمادية باهتة، و زي الحرس رمادي . كل شئ هنا يبدو كأنما انهالت عليه تلال من التراب . حتى الأضواء صارت رمادية مع مرور الزمن وقد اعتاد الجميع كل ذلك، ومن حاول الهروب من قبل دفع حياته ثمنا لمحاولته المتهورة . أما هو فعلم منذ اللحظات الأولى من سجنه أنه يحتاج إلى ما هو أكبر من مجرد رغبة في الحرية . فقد عدد الأيام قبل أن يبدأ، ورغم فداحة موقفه كان يرى خيطا ضعيفا من الضوء في نهاية الممر . ما كان عليه إلا أن ينتظر. يراقب الجميع. يصادق الجميع. يدّخر ما تقع عليه يده من أموال.. وينتظر.

حال السجن كحال أي مكان فوق ظهر الكوكب . ليس هنالك ما لا يمكنك شراؤه بالمال، خاصة حارسا ريفيا فقيرا، فقط عليك أن تمرر الثمن المناسب أسفل الطاولة .

في البداية امتنع الحارس، وتكفل الوقت بمهمة إقناعه قبل أن يظهر ذات ليلة مطأطأ الرأس معلنا استعداده لتقديم خدماته مقابل زيادة بسيطة عن المبلغ المعروض سابقا .

ما تم بعد ذلك كان سريعا، وخطيرا كذبحة صدرية ...

****

غمرته السعادة لنجاح خطته . مدّ ذراعيه على اتساعهما ليحتضن الكون . استنشق نسيم الحرية في حبور ثم سعل بقوة . رئتاه الضامرتان أدمنتا هواء السجن، ورحيق الجدران . لم تعد أنفه تتحمل رائحة الهواء المختلط برائحة الطعام المطهو على إيقاع غناء السيدات بعدما اختبرت لفترة لا بأس بها رائحة العرق العطنة، و رائحة الدم والبول ... ورائحة الخوف النفّاذة .

يمكنه أن يشعر بالجو العام الملئ بالسعادة، لكن جذب انتابهه شئ واحد ...

لم يكتف اللون الرمادي بالسيطرة على حياته السابقة بالكامل وإنما يبدو أنه - اللون الرمادي - مصر على إقحام نفسه في حياته الجديدة أيضا .

سعل بقوة ...

" سأستعيد تذوقي للألوان من جديد . فقط أحتاج لقليل من الوقت . "

بصق كلماته بصوت عال على جانب الطريق، ثم بحث عن أقرب حديقة عامة ليغمض جفنيه حتى الصباح .

****

مرّ شهران منذ هروبه من السجن، شهران عرف خلالهما الكثير من الحقائق المفجعة . قبل عشرين عام، وبعد حملة الاعتقالات التي تبنّتها الحكومة ضد الرسّامين، طلبة الفنون - أصحاب الريشة كما أطلق عليهم في ذلك الوقت - نجحت الحكومة بطريقة ما أن تنتزع الألوان من كل شيء .. حتى من الهواء . لم يبق سوى اللون الرمادي الذي غلّف كل شيء .

ادّعت الحكومة أنها بذلك ستحقق المساواة، لا فضل لأبيض على أسمر . تشابهت الوجوه، وتشابهت الهيئات، عمّال الفاعل، ورجال السلطة .. الكل يسبح في بحر من الرمادي . هلّل المثقفون، وأشادوا بمدى حكمة القرار . بارك رجال الدين مساعي حكومتهم الصالحة ..

وتطهر المجتمع ذاتيا من كل المعارضين .

لم يعد المجتمع في حاجة إلى وجود الشرطة . ومع الوقت، عمّ السكون كل شيء .

مرّ شهران منذ هروبه من السجن . شهران علم خلالهما بالضبط ما يتوجب عليه فعله . ساقته قدماه إلى القبو المهجور الذي كان يوما مرسمه، وخلوته . تفقّد علب ألوانه . لم يجد كل ما يحتاجه، ولكن لا بأس . ينقصه فقط لون واحد .. لن يضر كثيرا . يكب الألوان في علبة واحدة كبيرة، وتوجّه إلى أكبر الميادين في العاصمة .

حاول تجاهل شعوره بتلك النظرات التي تخترق ظهره . حثّ في خطوه تجاه منتصف الميدان، إلى أن صار على بعد خطوات من النصب التذكاري، حين باغتته الأيادي الممتدة للإمساك به . شرع في الركض

بكل ما أوتي من قوة، وسط نظرات الحشود المتسائلة . تسلّق النصب التذكاري، وبأقصى قوة أطاح بعلبة الألوان في الهواء، لتتناثر الألوان المكونة لقوس قزح في كل مكان . أدرك مطاردوه فداحة ما وصلت إليه الأمور . فتوجهت أيديهم إلى صديريات قمصانهم الرمادية، لتعود معبئة بالأسلحة النارية، ويبدأ إطلاق الرصاص الذي اخترق كل جسده، فيتناثر اللون الأخير من صدره، وتتساقط ذرات الألوان على الزحام، فيتبين زي الشرطة بلونه الأسود المميز .. في حين دوى صوت ارتطام جسده بالأرض .

خصلة شعر ورائحة الياسمين

شعرتُ بإرهاق شديد . تحوّلت كل الموجودات من حولي إلى وسائد . تلك الشاشة في مواجهتي، وذلك الصندوق الصغير في ركن الغرفة . حتى الحوائط .. ملايين الوسائد انتشرت فوق الحوائط بطريقة عشوائية . في لحظة ما رأيت مجموعة من القطط الصغيرة تقوم بتثبيت بعض الأثقال إلى أطراف جفوني . هززت رأسي

بقوة لأنفض تلك الهلاوس المغرية بالنعاس من رأسي . نهضت بحركة عصبية، و مشيت بخطوات حثيثة تجاه دورة المياه . يجب أن أبقى يقظا، والقليل من الماء البارد سوف يفي بالغرض . رششت قطرات من المياه على وجهي . ثم طالعت انعكاس صورتي في المرآة . عيناي شديتا الاحمرار . نظرت إلى ما فوق رأسي، فإذا بجنيات صغيرات تحلقن وتنثرن آلاف من النجوم الذهبية اللامعة في الهواء .

" حسنا! يكفي ذلك القدر من الخيالات الطفولية . لن أنتظر حتى تتحول مقلتي عيني إلى صفرين كبيرين كما يحدث في أفلام (والت ديزني). "

قلتها لشبيهي في المرآة بصوت مرتفع، ثم خرجت من دورة المياه بسرعة . نزلت الدرج لأشعل لفافة تبغ، وأستنشق بعض الهواء .

نفثت دخان سيجارتي على مهل . وأرسلت ناظري إلى السماء . شردت للحظات أخرجني منها شعور غريب بانعدام الأمان . وقبل أن أدرك ماهية ما يحدث، وجدت كثير من الأيادي تعتصر ذراعي، وتدفعني بقوة . كدت أسقط لكنني استعدت توازني بسرعة . وضعت الأيادي عصابة سوداء على عيني، و استمر الدفع العنيف

... صحت في استنكار " ماذا يحدث ؟ " لكن لم يجبني أحد، وتواصل الدفع حتى اصطدم رأسي بحائط به نتوءات حادة . لقد جرحت جبهتي بلا شك . لابد ان ذلك السائل اللزج الذى غطى كامل وجهي هو دمي .

" يا إلهي ... إني أنزف بغزارة ."

حاولت الصراخ، فخرج صوتي متحشرجا

" ما الذي يحدث لي ؟"

أجابتني الأيادي : " لا تنظر ... ابق وجهك ملتصقا بالجدار . مرّت لحظات بطيئة قبل أن تردف الأيادي : " حسنا ! يمكنك أن تنظر الآن ."

رفعت العصابة عن عيني . درت ببصري في المكان . كانت رؤيتي مشوشة من أثر اصطدامي بالحائط . خطوت بعض خطوات تائهة، قبل أن أرى ثلاثة أشباح في مواجهتي ... كانوا ولدين وفتاة . لا أعلم لماذا أشعر نحوهم بالألفة، والحنق في آن واحد . تريثت لثوان قليلة التقط أنفاسي، وأقرر ماذا عساي أفعل معهم . لكن جسدي لم يتقبل تلك الفكرة . باغتتني قدماي بالركض نحوهم

قبل أن أزن اختياراتي كما يجب . وجدتني أركض نحوهم بسرعة جنونية . حاولت الإمساك بأحدهم لكنه أفلت من قبضتي بمراوغة سريعة . طاردت الآخر الذي توقف فجأة، ثم دفعني في صدري لأترنح وأسقط أرضا . تلفتت حولي في نفاذ صبر حتى وقعت عيني على الفتاة التي ارتسمت على وجهها أمارات الحيرة ... عليها حقا أن تقلق لأني حتما سأحطم رأسها . اندفعت نحوها، فاستدارت وشرعت في العدو، يتبعها شعرها البني محلقا في الهواء . زدت من سرعتي حتى صارت على مسافة قريبة منها . عندما اقتربت منها اخترق أنفي عبيرها الياسميني . حينها راودني التردد .. هل أريد حقا أن أحطم رأسها ؟ ... لا .. أريد فقط أن أسألها عن اسمها . مددت يدي قدر استطاعتي . أمسكت بشعرها . تشبثت، وجذبته بقوة فتأوهت . شعرت بيد خفية تعتصر قلبي عندما سمعت صوتها . وتيقنت أني لن أستطيع أن ألحق أي ضرر بها . أنا حقا أريد أن أعرف اسمها . أرخيت قبضتي تدريجيا حتى أفلتها تماما . انزلقت أصابعي فوق خصلات شعرها الحريرية لتعود إلي خالية إلا من خصلة واحدة . في حين استمرت هي في الركض تجاه الجدار . تباطأت لثانيتين ألقت فيهما نظرة متعجبة . وحين وصلت إلى الحائط استدارت لتواجهني . حدّجتني بنظرة انتصار، ثم جعلت ترقص وتثب في مرح وهي تردد :

" ع الأمة ... ع الأمة "

فتحت فمي لأقول لها شيئا ما، ولكن باغتتني صفعة على وجهي من المجهول، لتغيب الرؤية للحظات، ثم تعود لأجد حشدا من الناس ملتفا حولي ... الجميع يردد كلام غريب عن فقدان الوعي . يبدو أنني سقطت مغشيا علي .

شعرت بغصة في حلقي . نهضت دافعا الجموع المحتشدة في غضب . ركضت كثيرا ثم توقفت عندما شعرت بالتعب .

كنت ألهث بقوة . لم أدر كيف يمكن أن يكون كل ما حدث للتو لا علاقة له بالحقيقة . حينها تذكرت شيئا ..

رفعت يدي، وبسطت كفي . فرأيت خصلة شعر بنية يفوح منها عبير ياسميني قوي ملتفة حول أصابعي .

هوى

ملأت الأدخنة الناتجة عن إحتراق لفافات التبغ جنبات غرفتي خافتة الإضاءة مما جعل الجو العام للغرفة يبدو كحلم هادئ . صدح الصوت الملائكي :

"لما بدا يتثنى "

ودقت الساعة معلنة الرابعة فجرا . تعجبت كثيرا . من أين لها بهذه الطاقة التي تمكنها من مواصلة الرقص لخمس ساعات متواصلة ؟ ارتسمت على وجهي ابتسامة واهنة، أشرت لها أن تكف عن الرقص ففعلت، ثم اقتربت بخطوات رشيقة حتى صارت على مسافة لا تتجاوز امتداد ذراعي . جذبتها بلطف فانجذبت بلا مقاومة تذكر، واستقرت على فخذي . ألقت برأسها فوق كتفي فلفحت أنفاسها الحارة المتسارعة رقبتي، وزحفت دغدغتها الحارة إلى أذني . شعرت برعشة محببة فصدرت عني ضحكة خافتة .

داعبت أناملها لحيتي، وارتكزت عيناها على شفتاي . هممت أن أقبلها لكن اعترضتني أطراف أناملها الدقيقة

" ليس قبل أن أنتهي من الرقص . ليس قبل أن أمنحك تعويضا يليق بكل سنوات الانتظار . "

نهضت في رشاقة . أسقطت رداءها الأسود الشفاف على الأرضية الخشبية لتقف عارية تماما .. وتشرع في الرقص، ويصدح الصوت الملائكي مرة أخرى :

"لما بدا يتثنى "

تسارعت دقات قلبي لفرط الإثارة . أعلم جيدا أن ذلك القلب الذي تخطى السبعين عاما لن يصمد طويلا . لذا - ولكي أشعر بأني مازلت حيا - أشعلت لفافة تبغ أخرى متجاهلا ذلك الألم المتصاعد في صدري، وجعلت أتمايل على إيقاع دقّات أقدامها .

تأملت ملامحها الطفولية في حبور، أنفها الصغير، وشفتيها الورديتين الرقيقتين، وشعرها البني الثائر، وعينيها العسليتين . كانت بيضاء كورقة، بضة وشهية،

كعب نهديها مثل نساء الجنة، والتمعت قطرات العرق المنبثقة من جسدها بالكامل وهي تغني كحوريات النبع في كابرس

أنا هيلاس هذا الزمن . لا فرق بيني وبينه سوى ذبحة صدرية وشيكة . أكاد أسمع شجار الآلهة على قمة الأوليمب .

" لما بدا يتثنى "

تمايلت، فزادت حدة الألم في صدري، نفثت دخان سيجارتي على مهل . صدح الصوت الملائكي :

"لما بدا يتثنى "

تمايلت... وتمايلت...

نفثت دخان سيجارتي على مهل ... ثم لم أعد قادرا على الصمود أكثر من ذلك . سقطت لفافة التبغ من بين أصابعي، تراجع الصوت الملائكي إلى الهامش، وتداخلت الموجودات من حولي شيئا فشيئا، ثم ... ظلام ثقيل .

****

"حسنا ! فقط رقصة أخرى .. ربما يتبدل كل شيء بعد ذلك . "

ردّدت هذه الكلمات في مساءات كثيرة وأنا أطالع وجهي في المرآة . ردّدتها كآلة .. وكما يليق بآلة رقصت، تمايلت، وضحكت . تدلّلت كثيرا، وتمنّعت أكثر . تلويت، وصرخت . ربما فعلت ما هو أكثر من ذلك . لكن ذاكرتى لم تعد في حالة جيدة . تبدّلت الأسرة والوجوه . كل ليلة شخص جديد، فراش جديد، ومفاجأة جديدة، فالرجال عادة يصبحون غريبي الأطوار في لحظات الشبق، البعض يبكي، و البعض يتأوه و يصرخ . بعضهم يضحك بهيستيرا، وبعضهم يكلم أعضائه، ينهرها أو يدلّلها، و أكثر من ذلك أحيانا، لكنني لا أذكر، فذاكرتي كما تعلم لم تعد على خير ما يرام .

" فقط رقصة أخرى . "

ردّدتها كثيرا حتى التقيتها .. ثم تغير كل شيء بعد ذلك .

****

صار جسدي الواهن في وزن ريشة . غلفني الظلام لمدة لا أعلمها تحديدا، ثم بدأ ضوء خافت في الارتعاش في المدى، سرعان ما زادت قوته حتى اخترق عيني كطلق ناري .

رفعت جفناي على مهل، فإذا بالشمس ساطعة من الشرق .. نعم لم أمت .

نظرت إلى جواري فرأيتها نائمة كطفل رضيع . تفرّست ملامحها مرة أخرى لبعض الوقت . لم تتغير . ويبدو أنها لن تتأثر بأصابع الوقت العابثة .. جميلة هي ووديعة تماما كما رأيتها للمرة الأولى منذ عامين تقريبا . كانت واقفة في زاوية مظلمة من أحد الشوارع الرئيسية بعد منتصف الليل تتهافت عليها العيون والأيدي المشتهية، و تحاصرها الكلمات الممتزجة باللعاب من فرط الشبق . لست أدري ما الذي دفعني لمحاولة التقرب إليها، وأنا الذي لم يحاول و لو مرة واحدة أن يخوض هذه التجربة في عمر المراهقة .

اقتربت منها . هممت أن أنطق ما رتبته من الكلمات، ولكن تعثّرت الحروف في حلقي . فسعلت بقوة، وأطلقت سبة على حظي العاثر . رفعت عينيّ الدامعتين من أثر السعال إليها ولم أتكلم . اقتربت بخطوات واثقة، وتأبطت ذراعي دون أن تنطق بحرف واحد .. نعم حدث ذلك بهذه البساطة .

ما حدث يومئذ تكرر يوميا خلال عامين .. اتفقنا على أن أمنحها ثمن ليلتها المعتادة، وأن تتقمص هي دور حبيبتي الراحلة منذ زمن، أن تغني لي، وأن ترقص لي .. ثم لا شيء .. نعم لاشيء .

أرجعتني حركتها من رحلتي إلى الماضي . طالعتها وهي تفتح عينيها في نعاس شديد . نظرت إلى عينيها، فبادلتني النظرات، و ابتسمت . لم أتاملك نفسي . أخذت نفسا عميقا، ثم ..

" أتتزوجيننى ؟ "

اتسعت ابتسامتها . اقتربت، ثم منحتني قبلة هي الأولى منذ عامين . و دفنت رأسها في صدري، وعادت إلى نومها مرة أخرى .

عجلة القدر

" الرحلة أطول من أن تنهيها أي بني . " يردّد صوت برأسي . الترنح، عادة التقطّها مؤخرا . أترنح بضع خطوات هي المسافة بين الباب وملاءة - هي كل محتويات الغرفة بالإضافة إلى مرآة أتحاشى النظر خلالها دائما - أصلب نفسي فوقها بين صحو متوتر، ونوم مضطرب إلى آخر الليل . الطنين بأذني يزداد حدة كلما مرق عقرب الثواني أمام نقاط التفتيش المنتشرة حول جدار محبسه الزجاجي المربوط إلى معصمي . ذلك الصوت الذي تلبّسني منذ شهور أهملت عدّها يجلجل ليلا، يملأ الفراغ بين أربعة حوائط وسقف خفيض ذو عين واحدة معطوبة، لكنّها لا تكف عن إطلاق نظرة غاضبة نحوي .

" الرحلة أطول من أن تنهيها أي بني .. أطول من أن ينهيها جسد واهن ." اتفق الجميع على أن مصدر الصوت هو فمي الذي لا يكف عن التمتمة. أنا شخص مخبول إذن.. لا ضير في ذلك، غير أني أعلم يقينا أن ما أسمعه ليس صوتي .. تلك الرخامة المطمئنة لست أنا مصدرها .أرمي جسدي إلى الوراء . تعيد أحداث يومي نفسها في اللحظات السابقة لاصطدامي بالأرض .

أستلقي متخذا وضع الصلب المعتاد . أنتفض، وتنسدل جفوني

"انهض يا بني." فتحت عينيّ، حاولت الاعتدال جالسا لكني شعرت بثقل فوق صدري كما أن هنالك يد تلتف حول خصري أيضا. طالعت الثقل الجاثم على صدري بهدوء استغربته . ثمّة امرأة تحتضنني، امرأة لا أعرفها بالتأكيد، ولم تكن موجودة قبل لحظات . لكني أشعر نحوها بألفة كبيرة رغم ذلك . " انهض " - يكرر الصوت - رفعت رأس المرأة وذراعها بهدوء خيفة أن أوقظها . نهضت متمهلا، وتسحبت خارج الغرفة التي تبدّلت معالمها، وصار لأرضيتها ملمس رملي غاصت به قدماي . بالخارج كانت صدمتي أكبر من صدمتي بوجود تلك المرأة التي كانت تطوقني بالداخل . يعي عقلي جيدا أن غرفتي لم تكن تطل على صحراء كثيفة الكثبان، لكن جسدي الذي خالفني الرأي كان يتحرك بإرادته الخاصة . في المدى كان شبح خيمة منتصبة في مواجهة شعلة من النار . دفعني الصوت : " هيا ".. تقدمت بخطوات مسرعة تجاهها . بدا لي أنها تبتعد مع كل خطوة أتقدمها نحوها . تقدمت كثيرا حتى أنهكتني محاولات الاقتراب . وقفت مجهدا . تتلاحق أنفاسي، وصحت : " أرجوك .. لا تبتعد أكثر من ذلك . " فإذا بي أقف تماما قبالة الخيمة، لا تفصلني عنها سوى خطوات

معدودة . أمام شعلة النار كان يجلس شيخ له لحية كثة، يحمل في يده عصا يغمسها في النار، ثم يخطّ بها في الرمال بين قدميه . قال لي وهو منهمك في الكتابة فوق الرمال : "لقد تأخرت " نظرت لا إراديا نحو معصمي . كان زجاج ساعة يدي مهشم تماما . وكانت العقارب تدور بعشوائية مجنونة . قبل أن أجد ما أقوله - استفهاما كان أو اعتذارا - كانت كف الشيخ تربت على كتفي، في حين أشارت سبابة كفه الأخرى إلى جواد أبيض، تعلّق قلبي بألق حزين ينضح من عينيه الدامعتين فور رؤياه . تقدم جسدي بإرادته الخاصة مرة أخرى نحو الجواد . واتاني صوت الشيخ من خلفي :" الرحلة أطول من أن تنهيها أي بني .. أطول من أن ينهها جسد واهن . فقط روح لا تنطفئ جذوتها تستطيع . "

عندما نظرت خلفي وجدتني أمام خيمتي - أخبرني حدسي أنها كذلك - . امتطيت الجواد في ذات اللحظة التي خرجت فيها المرأة من الخيمة . بدأت السير لكنها استوقفتني . ثم تسلقت ظهر الجواد لتجلس أمامي وجها لوجه . طوقت خصري وألقت برأسها إلى كتفي، حينها استأنفت المسير . حمحم الجواد وتوقف، ثم جعل يمشي الهويني عندما شرعت المرأة في الغناء . لم أتبين الأهزوجة التي تغنت بها، لكنني استعذبتها حتى صرت أتمايل على إيقاعها . بعد قليل توقفت المرأة عن الغناء . اعتدلت لتواجهني، بادلتني نظرات صامتة للحظات

كانت كافية لحفر قسمات وجهها في ذاكرتي ثم همست : "هذه ستعيدك إلي." هممت أن أسألها عن قصدها، بيد أنها كانت سريعة جدا عندما اندفعت غارزة أسنانها في لحم كتفي، فصرخت حتى بحّ صوتي . طال بي المسير مذ تركت المرأة ورحلت . طال بي المسير حتى تذكرت - بما أن التذكر هو أقرب وصف لما حدث - أن الشيخ عند الخيمة هو معلمي، وأن تلك المرأة هي زوجتي، و أني تركتها لأطارد حلم الترقي إلى منزلة الملائكة . فرغ مخزوني من الماء، ونفد طعامي منذ أيام، و لم أجد جبل الرب بعد . أعلم جيدا الآن وأنا ملقى فوق الرمال المشتعلة أني قد وصلت إلى نهاية . سرب النسور الذي كان يتبعني منذ أيام يعلم هذا أيضا ؛ لذا لم أبدِ أية مقاومة عندما شرع ذلك النسر الشجاع في مهاجمتي، فقط استلقيت في الوضع مصلوبا ليندفع باقي السرب نحوي، فأنتفض، وتنسدل جفوني .فتحت عيني، شهقت بشدة، واعتدلت جالسا . كنت في أشد الحاجة إلى الهواء . حلقي جاف كالحطب، ومعدتي تصرخ لشدة خواءها . تساءلت في نفسي : أكان حلما ؟ ثم أجبت : " هو حتما كذلك . "

أمامي يجلس معلمي . يدخن غليونه، ويخطّ بعصاه في الرمال . يقول : " الآن تعرف كيف بدأت . انهض، لديك رحلة لتستأنفها " نهضت طائعا، أترنح . يعصف الطنين برأسي، ويزيده سوءا جلبة خارج الخيمة

. تفحصت كتفي . ثمة شامة كبيرة اتخذت شكل صفين من الأسنان . تحسستها أناملي، و ندت عني ابتسامة . واصلت الترنح نحو مصدر الجلبة .كان الجميع بالخارج يجري في كل اتجاه في مشهد فوضوي . تحرك جسدي بإرادته الخاصة مرة أخرى . شرعت في العدو بسرعة نحو أحد الأكواخ . دفعت الباب بقدمي فانخلع من مكانه . بالداخل كان جوادا أبيض لعينيه بريق عرفته على الفور . حمحم الجواد فور رؤيتي، و كأن حمحمته كانت علامة إعلان الأمان لامرأة تحمل طفلين . أطلّت المرأة بحذر من خلف الجواد، و سرعان ما اعتلت وجهها ابتسامة، فركضت نحوي وطوقتني . فمها تماما فوق الشامة . حمحم الجواد مرة أخرى، فانتبهنا . الآن أعلم ما علي فعله . علي أن أصل بالمرأة وطفليها إلى المعبد ليحتموا به . بسرعة كبيرة حاولت أن أجلس المرأة فوق ظهر الجواد، لكن الجنود كانوا أسرع مني، أعلم أن جنود الملك جاءوا للقبض على كل رجال القرية للتحقيق معهم بعد سرقة مخازن القصر، و أنهم سيقدمون كل المتورطين للعدالة . حقيقة لا أذكر أحداث محاكمتي، لكني أذكر دموع المرأة، صوت المعلم . أذكر جيدا وجه الجندي الذي ثبّت كفي إلى الصليب قبل أن أغمض عيني مستسلما لموت لم يعد غريبا علي . فتحت عيني، السماء فوقي مباشرة . يبدو أن النعاس غلبني، فنمت على أحد الدكك الخشبية الموزعة بطول شاطئ الجزيرة . ثمة موسيقى تصدح في الشارع الخالي تماما لولا وجودي .

داعبتني نسمات الهواء . نظرت إلي نشاطي، فقررت أن أركض . ربما درت دورتين أو أكثر حول الجزيرة . أثناء دوراني كانت كلاب الشارع ترمقني بنظرة كسولة . تساقط قطرات قليلة من الأمطار فوق رأسي منحني مزاجا سحريا أشعرني أني أكثر خفة، وقدرة على التحكم فطفقت أركض مغمض العينين . ربما دُرت دورتين أو أكثر على هكذا حال قبل أن أتعثر وأسقط . بالتأكيد انفجرت ضاحكا على سذاجتي، لكن ضحكات نسائية أتتني من خلفي أسكتتني تماما . التفت إلى الضحكات . كانت فتاة في منتصف العشرينيات على أقصى تقدير . شعرها قصير جدا -تقريبا في قصر شعري - تناثرت الأقراط في أذنها وأنفها، كذلك كان يتوسط شفتها السفلى قرطا تعلوه من حين لآخر لفافة تبغ تدخنها بلامبالاة واضحة . تقدمت مني . بدون مقدمات كانت أصابعها تتحسس شامة على شكل صفين من الأسنان في كتفي . سرت رجفة في جسدي . وجدتني أحدق في عينيها، ثم لم أشعر بنفسي إلا و نحن على ذات الوضع لكن داخل غرفتي . في البداية شعرت بالخجل من عرينا، ما لبث أن تحول إلى إنطلاق تحفزه حرقة انتشاء بجنس لم أمارسه بعد . كان اندفاعي نحوها ملهوجا . حاولت اكتشافها مرات متتالية . مرة شتتتني عين السقف اللعينة، ومرة شتتني تداخل تقاطيع وجهها مع الدوائر المتشابكة في الملاءة . في كل مرة كنت أكتشف فقط ما يزيد حيرتي . طالت بي الحيرة حتى أشفقت علي، فتولت هي

زمام الأمور . كان في عينها راحة حببت إلي الاستسلام . عندما نشبت أظافرها في ظهري أعادتني إلى هيئتي الأولى، كتلة من الصلصال لا حول لها ولا قوة . استمرت أظافرها في الحفر حتى لامست أصابعها قلبي . في غمرة انتشائي عاد صوت المعلم يهدر في أذني : "لقد سقطت يا بني." فجعلت أصرخ، و أرطم رأسي بالحائط حتى ساد الظلام كل شيء. فتحت عيني بتمهل، فتحتهما على اتساعهما . لا أعرف لما خالجتني الغرابة عندما رأيت العين الوحيدة لسقف غرفتي تحدّجني بنظرتها المعتادة . كان الهاجس بأني لم أعد قادرا على التفريق بين الحلم والواقع يحطم أعصابي، والطنين .. الطنين يدفعني دفعا نحو الجنون . كانت رأسي تؤلمني بشدة، وجسدي يتفصد عرقا . أرعبني خيط من الدماء انساب من جبهتي إلى وجهي، و أذني . حقيقة أني أنزف أصابتني بالدوار، لكني تحاملت على نفسي ونهضت . طقطقت عظامي كأنها تتهشم، و ألهبتني نار انتشرت في جلد ظهري . مددت أناملي أتحسس ألمي، فازدادت جروحي لهيبا . ألحت علي - ربما لأول مرة بحياتي- رغبة في النظر خلال مرآتي المهملة . خطوت بضع خطوات مترنحة في اتجاه المرآة . أتعثر في عريي، فأسقط . جلجل صوت الشيخ المعلم : " لقد سقطت يا بني .. وما الرحلة إلا سقطات متكررة . "

عاودت الوقوف والترنح حتى وصلت إلي غايتي . باغتني اشتداد ألم ظهري . كنت أسمع صوت تفتق جروحي . مددت كفي محاولا إيقاف تفسّخ جلدي، فاصطدمت بنتوء صغير له ملمس غريب . اجتهدت في محاولة انتزاع ذلك النتوء قبل أن يقتلني حتى نجحت في اقتلاع جزء منه . عادت إلي كفي ملتفة حول ري... يا إلهي . عادت إلي الكف ملتفة حول ريشة .. رفعت الغطاء عن المرآة في لهوجة و أنا أبكي بحرقة . كان فراغ الغرفة وشبح الشيخ المعلم هما كل ما ارتأت أنه يستحق الانعكاس على سطحها الأملس، و لا أثر لي . انتابتني هيستيريا صراخ، وجعلت أضرب بكفي سطح المرآة حتى تكسّرت .فقدت القدرة تماما على التمييز بين الحلم والحقيقة، و لم يكن لدي سوى حل وحيد لأتيقن من ذلك .التقت كسرة من المرآة جرحني حدّها، قبل أن ينغرز بكامله في رقبتي، فأنتفض، وتنسدل جفوني .

ليلة.. دائمًا

من أوراق المفكرة :

ليلة، يا وجع أكتبه . لم أعد قادرا على كبح تيار الذكرى .

لا أعرف كيف استمر الزمن في العدو أمامي و أنا أقف هنا حيث الشجرة المسحورة، لقد تغير وجه الجزيرة كثيرا يا ليلتي . هُدمت البيوت القديمة المواجهة لمجرى النهر . صار الصغار عجائز .. وماتت جدتي .

أتعلمين ؟ لقد صار لي شعر أشيب كالثلج، وابنتين أسميتهما (ليلة) و (ليلى)، وخمسة أحفاد يشبهونك جميعا، ولا يداعب النوم جفونهم إلا على ذكر اسمك . كنت أود أن اكتب لك المزيد . الله يعلم أنني أريد ذلك، لكن علي أن أعود للبيت لأروي لأحفادي قصة جديدة أنت بطلتها .

أراك قريبا يا ليلتي .

****

زمن يمر . شجرة مسحورة، وشيخ . هذا المشهد يتكرر يوميا منذ سنوات، كثيرا ما قال أبي أنه كان ذات يوم صديقا لهذا المسن، و أنهما كانا يتشاركان مقعدا خشبيا في الصف، وأنهما ارتادا نفس الجامعة . كانا صديقين حتى تبدّل كل شئ عندما ادعى أنه مغرم بفتاة ماتت قبل أن يولد هو بعشرين سنة .

ولذلك منذ لقى أبي ربه و أنا أعتبر هذا الشيخ أبي .

كنت في صغري أراه يوميا جالسا تحت الشجرة المسحورة في الواحدة صباحا وهو منهمك في الكتابة، قبل أن يضع الورقة التي يكتب فيها في جوف الشجرة . بعد سنوات من مراقبته استجمعت شجاعتي ذات يوم وانتشلت الأوراق من جوف الشجرة بعد رحيله، وقرأت . قرأت كثيرا حتى فاضت عيناي بالدموع . هذا الرجل لا يدّعي . هذا الرجل يهيم عشقا .

في اليوم التالي كانت إمارات السعادة جلية على وجهه عندما لم يجد أوراقه . لقد ظن المسكين أن حبيبته أخذتهم أخيرا .

شعرت أنه بإمكاني أن أمنحه بعض السعادة الحقيقية، ومنذ ذلك الحين صرت أنتشل وريقاته يوميا و أقرأ .

أقرأ، و أنام دامع العينين .

عزائي الوحيد أن الرجل شعر أخيرا ببهجة حقيقية .

عجيب حالك أيها الشيخ . عجيب هو حالك يا أبي الجديد .

ذات ليلة وقفت في الشرفة أترقب ظهوره كعادته . لكنه تأخر عن موعده ... تأخر كثيرا .

هممت بالدخول لغرفتي عندما شعرت أنه لن يأتي، لكنه ظهر فجأة . كان يحث في خطواته، ويلهث . اقترب من الشجرة لكنه لم يجلس . لم لا أرى في يده المفكرة ؟

في غمرة من تساؤلاتي حدث أغرب ما رأيت في حياتي . انحنى كأنه يلتقط شيئا من الأرض .

بعد لحظات صار بوسعي أن أري بشكل أوضح . لقد كان يساعد فتاة في ملابس نوم صيفية بيضاء على النهوض . أخذ بيدها حتى وقفت . جبهتها تصل تماما لمنتصف صدره . نظرت إليه نظرة حب استطعت أن أشعر حرارتها من مكاني القصي .

اقتربت برأسها من صدره وطبعت قبلة حيث يختبئ قلبه، أعقبتها بقبلة سريعة أخرى على خده، فوضع يده على خده في انتشاء، وسرعان ما شرعا في الرقص .

يا الله !

من أين تأتي هذه الموسيقى ؟

رقصا طويلا حتى توقفت الموسيقى ثم جلسا ليستريحا تحت الشجرة . فضلت أن أمنحهما قليلا من الخصوصية . ولأول مرة منذ سنوات نمت مبتسما .

استيقظت في الصباح على صوت جلبة . هرعت إلي الشرفة مرسلا بصري إلى مصدر الصوت . احتشد الجيران حول الشجرة المسحورة، حيث كان الشيخ

جالسا، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، وعلى صدره أثر قبلة .